



معرف الكائن الرقمي للمقال: 10.54239/2319-022-003-010 (DOI)

الشيخ أبو الفضل ابن الإمام التلمساني (ت 845هـ/1441م)

-قراءة في سيرته من خلال رحلته العلمية إلى المشرق

Sheikh Abi Al-Fadl Ibn Al-Imam Al-Tilemsani

(D. 845 H/1441 M): A reading in his biography

from his scientific journey to the East

د. إسماعيل زيان *

أستاذ تعليم متوسط (ولاية الجلفة) / الجزائر

ziane_ismail2005@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2023/08/02 تاريخ المراجعة: 2023/08/30 تاريخ القبول: 2023/11/02

الملخص:

كانت الرحلة إلى المشرق مقصد العلماء المغاربة لأداء مناسك الحج ولطلب العلم، فهي ملتقى الشيوخ والفقهاء، وفيها تكثر المجالس العلمية والأدبية، لقد كانت بحق فرصة لتلاقح العلوم وشحن الهمم وتوسيع المدارك بالمدارس والمنظرات. ولا شك أن الرحلات العلمية التي أرخت لبعضها كتب التراجم كانت سببا في معرفة بعض أخبار العلماء حيث دوّنت ما حدث فيها من أخبار ولقاءات بين علماء المشرق والمغرب، ومن جملتهم الشيخ أبو الفضل ابن الإمام التلمساني (ت 845هـ/1441م)، فقد كانت رحلته إلى مصر والحجاز ومن بعدها إلى بيت المقدس والشام مثالا للرحلة العلمية التي توجت صاحبها بجملته من الإجازات، والمباحث الأدبية، إضافة إلى إقامة الشعائر الدينية، حيث التقى بعلماء أجلاء كالمقرئ والشمسي وابن حجر والسخاوي بمصر، والتقى بابن حيي وغيره بالشام.

* د. إسماعيل زيان، أستاذ التعليم المتوسط، الجلفة



ولهذا تأتي هذه الدراسة كي تسلط الضوء على سيرة هذا العَلمِ التلمساني من خلال وضع سيرة علمية له، وذلك بعد جمع المصادر التي أفردت له ترجمة أو ذكرته عرضاً، مع تتبع آثاره العلمية سواء الكتب أم الرسائل، أو جهوده العلمية في التدريس. الكلمات المفتاحية: محمد بن إبراهيم؛ ابن الإمام؛ تلمسان؛ رحلة؛ القرن التاسع؛ مصر؛ مجالس؛ فقه مالك.

Abstract :

The journey to the east was the Maghreban scholars' destination to perform the rituals of Hajj and to seek knowledge, as it is a meeting place for Sheikhs and in it scientific and literary councils abound. There is no doubt that the Maghreb journeys were among the most important scientific journeys that the biographies books and travels which wrote down the meetings news that occurred in them between the scholars of the East and the West, like the journey of Sheikh Abi Al-Fadl Ibn Al-Imam Al-Tilemsani (d. 845h/1441m) to Egypt, Hijaz, Qudis, and Dimascus, where he met some scholars as Al-Maqrizi, Al-Shommani, Ibn Hajar and Al-Sakhawi in Egypt, and Ibn Hidji and others in Dimascus.

So that, this study aims to shed light on the biography of this Tlemcen Scholar by developing a his scientific life after collecting the sources that devoted to talk about him or mentioned him in passing, while tracking his scientific effects, whether books or letters, or his scientific efforts in teaching.

Keywords : Muhammed bin Ibrahim; Ibn Al-Imam; Tlemcen; Journey; Century 9 AH; History; Egypt; Council; fiqh of Malik.

- مقدمة:

تميّز المغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع الهجريين بوجود عدّة حواضر علمية في الشرق والغرب كبجاية وقسنطينة وبسكرة وتلمسان، وكثرت في تلك الحواضر العلمية المساجد والمدارس التي عَجّت بالعلماء والفقهاء سواء من داخل المغرب الأوسط أم من خارجه، وقد تميّزت حاضرة تلمسان بوفرة المراكز العلمية بسبب اعتناء سلاطين الدولة الزيانية والمرينية بالعلم والعلماء، حيث كانوا يشجّعون على الحركة العلمية فيها، فكثرت البيوتات العلمية والمدارس التعليمية، وأغدق أولئك السلاطين على العلماء.



ويبدو أنّ الحياة الثقافية في تلمسان قد أثّرت على العائلات العلمية، حيث بدأت كلّ عائلة بوضع صبغة علمية على كلّ مولود لها، فنشأ كلّ ولد منها على طلب العلم تحت عيون العلماء من أعمامه أو أبناء عمومته، فيتزوّد بادئ أمره بالعلوم منقولها ومعقولها، ولا يتحمّل عناء ومشقة طلب العلم من مكان إلى آخر أو من شيخ إلى شيخ.

وهذا ما حدث فعلا مع أحد أبناء عائلة ابن الإمام وهو الشيخ أبو الفضل محمد بن إبراهيم، حيث عبّدت له عائلته الطريق لبلوغ مراتب العلماء ومزاحمة الفقهاء، ولأجل هذا سيجيب الموضوع على إشكالية حول هذه الشخصية التي نشأت بأحد الحواضر العلمية بالمغرب الأوسط والمتمثلة فيما يلي:

كيف أثّرت الحياة العلمية في تلمسان بشكل كبير على الشيخ أبي الفضل بن الإمام؟ وكيف كانت لرحلته إلى المشرق أثرٌ في صقل علومه المكتسبة من خلال لقاءه بعلماء عصره؟

أهمية وأسباب اختيار الموضوع:

أوّلا: تكمن أهمية الموضوع كون الشيخ أبي الفضل بن الإمام من أهمّ علماء تلمسان الذين احتكوا بعلماء المشرق، ولم تُفرد له ترجمة وافية تتناول حياته الاجتماعية والعلمية.

ثانيا: أنّ هذه الدراسة تبرز الحياة الثقافية في تلمسان ومدى علاقة علماء المغرب الأوسط بعلماء المشرق الإسلامي خاصة بمصر والحجاز ودمشق خلال القرن التاسع الهجري.

أهداف البحث:

سأحاول من خلال هذه الورقة كتابة ترجمة وافية لهذا العلم التلمساني الذي ورد ذكره في مجموعة كبيرة من كتب التراجم والتاريخ سواء المغربية منها أم المشرقية، وإبراز قيمته العلمية وذلك بالحديث عن نشأته في تلمسان، ورحلته إلى المشرق، وجلساته العلمية والأدبية بمصر والشام.

1- الشيخ أبو الفضل ابن الإمام في تلمسان:

1-1 الحياة الثقافية في عصر أبي الفضل:



تميّز المغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع الهجريين بوجود عدّة حواضر علمية في الشرق والغرب كبجاية وقسنطينة وبسكرة وتلمسان، وكثرت في تلك الحواضر العلمية المساجد والمدارس التي عجت بالعلماء والفقهاء سواء من داخل المغرب الأوسط أم من خارجه، وقد تميّزت حاضرة تلمسان بوفرة المراكز العلمية بسبب اعتناء سلاطين الدولة الزيانية والمرينية بالعلم والعلماء، حيث كانوا يشجّعون على الحركة العلمية فيها، فكثرت البيوتات العلمية والمدارس التعليمية، وأغدق أولئك السلاطين على العلماء، وكان أبو حمو موسى الأول (707هـ/1308م-718هـ/1318م) من السلاطين الذين مهّدوا كثيرا لتلك الحركة وذلك عندما استقبل الفقهاء وفي طليعتهم ابنًا الإمام أبا زيد وأبا موسى (هادي، 2018، صفحة 81).

ولم تتأثر تلمسان بذهاب أبي حمو موسى الأول، فقد مشى من بعده على نهجه، فكانت المجالس عامرة بالعلماء والشيوخ، وتسودها المناظرات والمطارحات الأدبية (فيلالي، 2002، صفحة 323).

لكن أمر الدولة الزيانية لم يدم، فقد استولى المرينيون على المغرب الأوسط وفي مقدّمته تلمسان، وبدأ عهد جديد بتلمسان في ظل السلطان أبي الحسن المريني (732هـ/1331م-749هـ/1348م)، ولحسن الحظ فقد كان أبو الحسن محبًا للعلم والعلماء، فلم يهدم ما بناه سلاطين الدولة الزيانية، بل سار على نهجهم، فقرب إليه علماء تلمسان كابني الإمام (التنبكتي، بدون تاريخ، صفحة 247)، واستقبل عدّة علماء من الأندلس والمغرب الأقصى، فكان مجلسه مزيجًا من العلماء زاد من الحركة العلمية بتلمسان. بعد ذلك تداول سلاطين الدولة المرينية حكمهم على تلمسان بنفس الوتيرة تقريبًا، وبدأت تظهر البيوتات العلمية على شكل عائلات، فظهرت عائلة ابن الإمام التي أنجبت عدّة علماء، وعائلة المقرّي التي خرج منها القضاة والفقهاء، وعائلة العقباني وابن مرزوق وغيرها من العائلات (حساين، 2015، الصفحات 118-130).

1-1- اسمه ونسبه:

هو محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام، أبو الفضل (التنبكتي، بدون تاريخ، صفحة 521)، التلمساني، وقد أخطأ المقرّبي في اسم



والده حيث قال إنه إبراهيم بن يحيى (المقريزي، 2002، صفحة 87/3)، ولهذا ارتاب السخاوي في اسم والده فقال: محمد بن يحيى أو إبراهيم (السخاوي، بدون تاريخ، صفحة 74/10)، لكن الصحيح ما أثبت عند أهل التراجم كالتنبكتي الذي قال إن والده هو الشيخ الفقيه إبراهيم بن عبد الرحمن ابن الإمام، ذكر التنبكتي أن له علوما جمّة وفتاوى، ونقل عنه المازوني ثم الونشريسي في نوازلهما، وتوفي بفاس ودفن بباب الجيزيين سنة 797هـ/1395م (التنبكتي، بدون تاريخ، الصفحات 53-54).

أمّا جدّه فهو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام، أبو زيد، شيخ المالكية بتلمسان، كان هو وأخوه أكبر خصيصين بالسلطان أبي الحسن المريني، وتخرج على يدهما كثير من الفضلاء، وقد خلف بعض التصانيف المفيدة والعلوم النفيسة، وكانت وفاته سنة 743هـ/1342م (فرحون، بدون تاريخ، صفحة 486/1).

وعلى هذا فالشيخ محمد بن إبراهيم ينحدر من عائلة ابن الإمام التي اشتهرت بالعلم بتلمسان وضواحيها، وترجع تسميتهم بأبناء الإمام نسبة لأولاد الإمام التنسي البرشكي (فرحون، بدون تاريخ، صفحة 486/1)، وقد قال عنهم الونشريسي: «وأما بنو الإمام فأعلامهم طبقة الشيخان الراسخان الشامخان، العالمان المفتيان الشقيقان، الفقيه العلامة آخر صدور أعلام المغرب بشهادة أهل الإنصاف شرقاً وغرباً، أبو زيد، والعلامة النظار آخر أهل النظر وجامع أشتات المعارف، أبو موسى ابن الإمام، ثم الشيخ أبو سالم إبراهيم بن أبي زيد، وابن عمه الشيخ الصالح أبو محمد عبد الحق ابن أبي موسى، ثم العلامة القاضي الرحال أبو الفضل بن أبي سالم، لم يبق لهما الآن عقب بتلمسان إلا صاحبنا وتلميذنا الخير الفاضل أبو العباس أحمد بن أبي الفضل المذكور» (التنبكتي، بدون تاريخ، صفحة 248).

توفي الشيخ أبو الفضل محمد بن إبراهيم بتلمسان سنة 845هـ (الفاسي ا، 1971، صفحة 289/2)، بعد مسيرة علمية كبيرة قام بها في المشرق والمغرب تاركاً أثراً كبيراً في نفوس تلامذته ما جعلهم يترجمون له في كتبهم، لتتناقلها كتب التراجم من بعدهم.

1-2- شيوخه وتلامذته:



نشأ الشيخ محمد بن إبراهيم في حضن والده الذي كان عالماً، فأخذ عنه العلم وعن علماء تلمسان من بني عمومة والده كالشيخ عبد الحق بن عيسى ابن الإمام، ومن علماء آخرين كالشيخ سعيد العقباني، فأخذ عنهم الحديث والتفسير وعلوم اللغة كالنحو والبيان، وقد ساعدت المجالس الأدبية بتلمسان في صقل الملكة الأدبية للشيخ أبي الفضل ابن الإمام الذي عُرفَ عنه تمكُّنه في علم البيان والتصوف والأدبيات والشعر والطب (التنكي، بدون تاريخ، صفحة 522).

وقد خلف الشيخ محمد بن إبراهيم بعد ذلك التحصيل طلباً وتلامذة أينما حلَّ وارتحل، ففي تلمسان كان من أهم تلامذته الشيخ محمد بن عبد الله التنسي (ت 899هـ/1494م)، حيث أخذ عنه قسطاً كبيراً من العلم والأدب (التنسي، 1980، صفحة 139/4)، والشيخ ابن مرزوق الكفيف ابن الحفيد (ت 901هـ/1495م) (غازي، 1984، صفحة 170)، والشيخ محمد عبد الله بن عبد الواحد الورياجلي (غازي، 1984، الصفحات 111-112)، والشيخ محمد بن محمد المشذلي حيث رحل سنة 840هـ/1436م إلى تلمسان وأخذ عنه (السخاوي، بدون تاريخ، الصفحات 180/9-181). وفي تونس خلف عدّة تلاميذ منهم الشيخ أحمد بن محمد التجاني المعروف بابن كحيل (ت 865هـ/1463م) (محفوظ، 1994، صفحة 153/1). أما في مصر فقد أخذ عنه الشيخ أحمد بن محمد الشمّني (872هـ)، والشيخ تقي الدين المقريزي (ت 845هـ/1441م) (المقريزي، 2002، صفحة 87/3)، وغيرهما الكثير.

ويبدو أنّ عائلة ابن الإمام لم تعقّب كثيراً، فقد نقل التنكي كلاماً للونشريسي يفيد بأنّ هذه العائلة قد بدأت بالتضاؤل، ولم يبق منها سوى الشيخ أبو الفضل ابن الإمام الذي خلف فقط ابناً عالماً هو الشيخ أبو العباس أحمد، والذي كان من أصحاب الونشريسي وتلامذته (التنكي، بدون تاريخ، صفحة 248).

2- مكانة الشيخ محمد بن إبراهيم العلمية:

كان للشيخ محمد بن إبراهيم قدم راسخة في العلم مهّدت لها عائلته، عائلة ابن الإمام، ثمّ جولته العلمية في المشرق، حيث قال عنه تلميذه الحافظ التنسي: «...شيخنا



صدر البلغاء وتاج العارفين وأطروفة الزمان أبا الفضل بن الإمام» (التنسي، 1980، صفحة 139/4).

وقد قال القلصادي في رحلته عن الشيخ محمد بن إبراهيم إنّه كان عالما بالمعقول (القلصادي، 1978، صفحة 108)، وهذا أيضا ما ذكره المقرئزي حيث قال إنّه كان صاحب فنون عديدة من أنواع العلوم العقلية والنقلية، لا يكاد يخفى عليه علم حتى يشارك فيه مشاركة جيدة، ويجاري أربابه مجارة حسنة (المقرئزي، 2002، صفحة 87/3).

وقد أثنى عليه أبو جعفر الوادي آشي في ثبته عند ترجمة الشيخ ابن مرزوق الكفيف حيث قال: «وقرأ بعضه -أي صحيح البخاري- أيضا بمدينة تلمسان على الإمام العالم النحرير، بقية الشيخ، المحقق الجليل سيّدنا أبي الفضل بن إبراهيم ابن الإمام الأكبر الشهير الخطير العلامة الجليل وحيد عصره، سيّدنا أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الحميري المعروف بابن الإمام» (البليوي، 1983، صفحة 255).

ويبدو أنّ مجلس الشيخ محمد بن إبراهيم كان عامرا بالفوائد الأدبية والإنشادات، وهذا ما تلمسه من أخباره، فقد ذكر تلميذه الحافظ محمد بن عبد الله التنسي في أحد كتبه: «وسمعتُ شيخنا صدر البلغاء وتاج العارفين وأطروفة الزمان أبا الفضل بن الإمام يقول: كان بعض الرؤساء في بعض البساتين معه مؤدّب ولده، فهما يتسايران وبين يدي الرئيس خديمه ممسكا رمحه إذ خرجت عليه جماعة من أعدائه، فلمّا رأهم وعرف ما أتوا به من الشر، التفت إلى مؤدّب ولده وقال: أنشدني البيتين اللذين أنشدتهما غدوة فأنشده:.....» (التنسي، 1980، الصفحات 139/4-140)، وذكر في موضع آخر: «وقد أنشدنا فيه شيخنا، تاجُ الأدباء، أبو الفضل بن الإمام رحمه الله ما نسبته إلى ابن الرومي يهجو به توما الحكيم...» (التنسي، 1980، صفحة 283/4).

ويبدو تأثر الشيخ محمد بن إبراهيم بكتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب واضحا، حيث اعتنى به قراءة وتعليقا، وهذا ما ذكره الشيخ أحمد المقرئ في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" حيث قال إنّه رأى بهامش



نسخة من الكتاب خطوط جماعة من أهل المشرق والمغرب منهم خط الشيخ أبي الفضل محمد بن إبراهيم (المقري، 1997، صفحة 106/7)، وقد أدرج الشيخ أحمد المقرئ جملة مما كتبه الشيخ محمد بن إبراهيم، منها تعليقه على عالم وقف عند الترجمة التي كتبها لسان الدين ابن الخطيب لأبي عبد الله المقري الذي نسب لقرئش (ابن-الخطيب، 1424، صفحة 116/2)، وفيه: «وكتب بعض المغاربة على هامش هذا المحل من الإحاطة ما صورته: القرشي وهم؛ انتهى. فكتب تحته الشيخ الإمام أبو الفضل ابن الإمام التلمساني رحمه الله تعالى على ما نصه: بل صحيح، نطقت به الألسن والمكاتبات والإجازات، وأعربت عنه خلال الكريمة، إلا أنّ البلدية يا سيدي أبا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية في إمام المغرب أبي عبد الله المقري وهماً، والحمد لله؛ انتهى» (المقري، 1997، صفحة 204/5)، ومنها أيضاً ما ذكره محمد بن إبراهيم عن مجلس في جامع البيرة من الأندلس بين أبي عبد الله المقري ولسان الدين ابن الخطيب (المقري، 1997، صفحة 166/5).

وقد أورد الشيخ عبد الرحمن الغبريني في شرحه على البردة رسالة تصف مجلساً بين الشيخين أبي الفضل بن الإمام وابن مرزوق الحفيد، حيث جاء فيها ذكرٌ لاجتماعهما أيام العيد في قبة عظيمة بتلمسان فيها أنواع الغوالي والأطعمة ما يعجز اللسان عن وصفه، ثم ذكرت الرسالة تلك المناظرة التي وقعت بينهما في تفسير بعض الآيات القرآنية، وأنه لم يبق فنّ من فنون العلم إلا وجالا فيه على تأدّب وإنصاف، يورد أحدهما الكلام فينصت له الآخر حتى يكمل، فإذا فرغ من حديثه تكلم الآخر (ابن-الأحرش، 1996، الصفحات 295-296).

أمّا الشيء اللافت للانتباه هو ما ذكره الونشريسي حيث قال إنّ الشيخ محمد بن إبراهيم هو أول رجل أدخل للمغرب شامل الشيخ بهرام، وشرح المختصر له، وحواشي التفنازي على العضد، وابن هلال على ابن الحاجب الفرعي، وغيرها من الكتب غير المعروفة وقتها عند أهل المغرب، وذكر أيضاً أنّ له معرفة كبيرة بعلم البيان والتصوف والأدبيات والشعر والطب (التنبيكي، بدون تاريخ، صفحة 522).



وهنا يأتي السؤال: لماذا كان أبو الفضل أول من أدخل تلك الكتب إلى المغرب؟
ولماذا أدخلها؟

بالنسبة لكتب الشيخ بهرام (ت 805هـ/1402م) مثلا، فالأمر له علاقة بالمذهب المالكي فقد كان الشيخ بهرام شيخ المالكية بمصر في زمانه وقد ألف كتابيه "الشامل في فقه مالك" و"شرح مختصر خليل" ولم تنتشر كتبه في المغرب إلا بعد وفاته، وسبب ذلك ما ذكره -على ما يبدو- التنبكي حيث قال إن بعض المغاربة النازلين بالشيخونية في مصر كانوا يزددون ويزهدون في الشيخ بهرام بقولهم إنهم لا يقرؤون كتبه ولا كتب شيخه خليل، بل يقرؤون كتب من هو أعلى منه كابن عبد السلام فما فوقه (التنبكي، بدون تاريخ، صفحة 148)، ويبدو أن الشيخ قاسم العقباني التلمساني قد اقتدى بمعاصره أبي الفضل، حيث يمتدح شرح بهرام (التنبكي، بدون تاريخ، صفحة 147).

2-1- آثاره ونماذج من تفاسيره:

في الواقع، لم أقف على ما خلفه الشيخ محمد بن إبراهيم من كتب أو رسائل، اللهم بعض الأخبار الموثقة عنه في الكتب، لكن مع هذا فقد ذكر ابن غازي عند ترجمته للشيخ عبد الله الورياجلي أن للشيخ محمد بن إبراهيم كتباً ومصنفات ونظماً، وفهرساً جمعه من رحلة المشرقية لبعض من أخذ عنهم، حيث قال: «والشيخ العالم الإمام أبو الفضل بن إبراهيم بن الإمام أوقفني على ما كتب له بخط يده عام أربعة وثلاثين وثمان مائة، ونص بعضه: فله أن يروي عني جميع ما رويته ويرويه، وكذلك ما صحّ لديه من قبلي من جميع ما وضعته وصنفته أو بحث أوردته ونظم نظمته على الشرط المعتبر عند أهله، وما لنا من روايات، فقد تولى جمعها فهارس بأيدي الأصحاب حسبما التقطناها بالبلاد الحجازية والمصرية والشامية والإفريقية، تتطّلب من أيديهم إن شاء الله» (غازي، 1984، الصفحات 111-112).

وقد ذكر التنبكي في كتابه "نيل الابتهاج" أن للشيخ أبي الفضل محمد بن إبراهيم أبحاثاً في التفسير مع الشيخ أبي عبد الله المقرئ (التنبكي، بدون تاريخ، صفحة 522)، وتبعه في ذلك ابن مريم (ابن-مريم، 1908، صفحة 221)، وقال إن تلك الأبحاث في كتاب "المعيار" للونشريسي، وبالرجوع إليها نجد أن الشيخ أبا الفضل ابن الإمام ناقش بعض



تفاسير الشيخ أبي عبد الله المقرئ لبعض الآيات القرآنية (الونشريسي، 1981، الصفحات 333/12-344)، وتفسير آية ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ حيث أجاب الشيخ أبو الفضل ابن الإمام على سؤال أورده بعض الفضلاء على مدرّس في مجلس تدريسه، وذلك بأن قال المدرّس في قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ "الأنف"، وخصّ بالسمة لأنّه أشرف أعضاء الوجه، فقال المعترض: لو كان الأمر كذلك لزم إذا سجد عليه دون الجبهة أن يجزيه وليس الأمر كذلك، فسلم له المدرّس الإيراد ورآه لازماً، فهل هذا الإيراد لازم أم لا؟

فقال أبو الفضل: الجواب عندي في الآية الكريمة أنّه إنّما عدل عن ذكر الأنف إلى ذكر الخرطوم، مع كون الخرطوم لا يطلق لفظه على الإنسان لغة، إنّما هو إخراج للموسوم عن الحقيقة الإنسانية ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، وخصّ الأنف بالسمة تنبيهاً على أنّ الأنف في كلام العرب موضع الفخر والكناية عن الحسب، قال الحطيئة:

قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُوفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفٍ النَّاقَةَ الدَّنْبُ

وقول من قال: شَمُّ الْأَنْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ. وهو أكثر من أن يذكر، وإذا أرادوا الحماية عن الحريم وغيره قالوا أنفة، وأنف من الأمر، وإذا وصفوا بالكبر قالوا أنف في السماء واست في الماء، وإذا دعوا له قالوا: لا أصغر الله أنفه، وعلى الضد: أرغم الله أنفه. وجاء: وإن رغم أنف أبي ذرّ.

وإنّما كان الأنف موضع كناية عن الكبر لأنّه حاسة تبعث بإدراكها على ما يستطاب من الروائح الطيبة فيقبل الشام، وتحمل تارة على الإعراض بحس الصارف من الأمور الكريهة المشمومة. ولما كان كفر هؤلاء الكفار إنّما هو عناد عند الأكثرين جاءت الآية منبهة على وسمه على الأنف المستعمل كثيراً في الأنفة، وإلا بآية مناسبة في العقوبة وكون الكبر هو المانع.

ولا يرد علينا مثلاً كون الجبهة محلاً للسجود، فإنّا نقول: الآية على المخاطبات اللغوية وعلى أسلوب الخطابة من مجاز وكناية وتشبيه وغير ذلك ممّا تنصرف فيه العرب من أساليب البلاغة. وأمّا السجود على الجبهة فمن التكاليف الشرعية وهي من



السبعة الأعضاء التي أخبر صلى الله عليه وسلم أنه أمر بالسجود عليها، والأنف أيضا لم يخرج عن السجود، ولو خرج ما ضرّ، ولو كلّفنا بالجملة وحدها لم يقدر فيما نحن فيه لاختلاف البابين، والله أعلم (الونشريسي، 1981، الصفحات 181-182).

وقد نقل الونشريسي أيضا بعض الفوائد من الشيخ أبي الفضل في أماكن متفرقة من كتابه "المعيار"، منها سؤاله للشيخ أبي عبد الله ابن مرزوق عند حديث عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم في مسألة خروج الخطايا من الجبين والجوارح بسبب الوضوء، وهل هي خاصة بالذنوب عامة، أي تدخل فيها الكبائر؟ أم إنها خاصة بصغائر الذنوب فقط؟ (الونشريسي، 1981، صفحة 354/12).

ويبدو أنّ الونشريسي قد تحصّل على تقايد كثيرة بخطّ الشيخ أبي الفضل ابن الإمام وقد صرح بذلك في أحد مواضع كتابه حيث قال: «أحفظ من خطّ شيخ شيوينا الإمام أبي الفضل ابن الإمام رحمه الله أنّ الشيخ أبا القاسم السيوري أقسم بالمشي إلى مكة أن لا يفتي بمذهب مالك في ثلاث مسائل...» (الونشريسي، 1981، صفحة 363/1)، وذكر المسائل الثلاث.

3- رحلته إلى المشرق:

ارتحل الشيخ محمد بن إبراهيم سنة 810هـ/1407م إلى المشرق بنية الحجّ، فمرّ بتونس وأقام بها مدّة تضارب المترجمون في تحديدها، فالمقرّبي (المقرّبي، 2002، صفحة 87/3) ومن بعده السخاوي (السخاوي، بدون تاريخ، صفحة 74/10) ذكرا أنّه مكث بها عدّة أشهر، لكنّ ابن حجّي ذكر في "تاريخه" أنّ الشيخ محمد بن إبراهيم مكث بتونس مدّة سنة، لأنّ صاحب تونس أشار عليهم بعدم خروجهم في هذا العام لفساد البرية بالأعراب، فأقاموا عنده سنة، وأحسن إليهم إحساناً كثيراً، ثمّ قدموا لبضعة عشر يوماً من شوال، وتوجّهوا للحجّ (ابن-حجي، 2003، صفحة 920/2).

والراجح هو ما ذكره ابن حجّي لأنّه كان معاصراً لتلك الواقعة، ولأنّ الشيخ محمد بن إبراهيم أخبره بذلك بقوله: «قال لي: الآن عن بلدي ثلاثون شهراً، وكان خرج من بلده للحجّ في ركب كبير، فأمرهم صاحب تونس بالمقام عنده إلى العام القابل خوفاً عليهم



وأجرى عليهم النفقات، ورأيته يثني على صاحبها ثناء كثيراً جداً، ثم إنّه قدم القاهرة ولبضعة عشر يوماً مضى من شوال، وحجّ» (ابن-حجي، 2003، صفحة 924/2).

إذن، دخل الشيخ محمد بن إبراهيم إلى مصر وخرج منها إلى الحجّ في شوال من سنة 811هـ/1408م، ويبدو ممّا أورده ابن حجّي أنّه بعدما أدّى مناسك الحجّ ورجع إلى مصر، أصابه مرض وضعف أعاقه عن السفر مع الركب الحجازي المتوجّه إلى المغرب (ابن-حجي، 2003، صفحة 924/2)، فمكث على ما يبدو متمرّضاً بمصر، ولمّا شفي من مرضه رأى أن يتوجّه إلى بيت المقدس.

وهذا ما حدث بالفعل، فقد سافر الشيخ محمد بن إبراهيم إلى بيت المقدس، لكن لم تدم إقامته طويلاً حيث بلغت فقط بضعة عشر يوماً (ابن-حجي، 2003، صفحة 924/2)، ثمّ انتقل بعدها مباشرة إلى دمشق، ولا نعرف سبب تلك الزيارة، أكانت زيارة لأقاربه في الشام، خاصة إذا ما علمنا أنّ بعض علماء تلمسان كانوا يزاولون مهنة القضاء في حلب ودمشق، أم أنّ تلك الزيارة جاءت بطلب من أحدهم؟

دخل الشيخ محمد بن إبراهيم إلى دمشق في أواخر سنة 812هـ/1410م، واجتمع بعلمائها، فتزاحم عليه الناس بدمشق حين علموا فضيلته وأجلّوه وأخذوا عنه (السخاوي، بدون تاريخ، صفحة 74/10)، وقد ذكر ابن حجّي أنّه التقى به يوم الاثنين 7 محرم من سنة 813هـ/1410م، وذكر اجتماع العلماء به يوم 25 صفر سنة 813هـ/1410م، حيث قرئت البردة من طريق إجازة ابن حجّي التي أخذها من ابن جماعة عن البوصيري، وكانت مناسبة القراءة هي حضور الشيخ محمد بن إبراهيم لذلك المجلس الذي كان فيه أخُ ابن حجّي والقاضي المالكي شرف الدين عيسى والقاضي شهاب الدين ابن نشوان وجماعة كثيرة جداً (ابن-حجي، 2003، صفحة 933/2).

وقد ذكر ابن حجّي أنّ الشيخ محمد بن إبراهيم لمّا أمضى مدة شهرين واثني عشر يوماً في دمشق، عزم على السفر والتوجّه إلى مصر، عازماً على الرجوع إلى بلاده مع الحجاج عند رجوعهم (ابن-حجي، 2003، صفحة 933/2).

ويبدو أنّ تلك الرحلة لم تكن الأخيرة للشيخ محمد بن إبراهيم فقد زار مصر مرّة أخرى، واجتمع ببعض علمائها سنة 823هـ/1420م، وهذا ما ذكره الشيخ أحمد المقرّي



حيث قال إنّ الشيخ محمد بن إبراهيم اجتمع مع الشيخ علاء الدين بن سلاّم وجماعة من الأعلام بمزار السيّد زينب بمصر، فكان الاجتماع بمنزلة مجلس شعري تبادل فيه الحاضرون بعض الأبيات لجلال الدين بن الخطيب ولسان الدين بن الخطيب، وبعدها استرسل الشيخ محمد بن إبراهيم في الكلام، وذكر لهم قصة عن عادة من عادات تلمسان وهي تغطية وجه المحتضر برداء أسود، ثمّ قال بعدها: فاتّفق أنّ إنسانا كانت له زوجة من أجمل النساء وأحسنهنّ صورة، وكان غائبا فمرضت واحتضرت، وألقى ذلك الرداء على وجهها، واتّفق حضور تلك الساعة، فلمّا شاهدها على تلك الحال، وقف وبكى طويلا ثمّ أنشد (المقري، 1997، الصفحات 291-292):

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ غَرَبَتْ حَتَّى رَأَيْتُ الدُّجَى مُلْقَى عَلَى الْقَمَرِ
أَنْشَدْتُكَ اللَّهُ فِي حِفْظِ الْوِدَادِ فَقَدْ بَانَتْ سُعَادُ وَهَذَا آخِرُ الْخَبَرِ

3-1- مجالس الشيخ محمد بن إبراهيم بمصر:

رجع الشيخ محمد بن إبراهيم إلى مصر على ما يبدو في أواسط سنة 813هـ، واجتمع خلالها بجملة من العلماء كتقي الدين الفاسي الذي أطلعه على تاريخه الذي كتبه عن مكة، فكتب له الشيخ محمد بن إبراهيم رسالة طويلة يمتدح فيها كتابه، وعن ذلك قال تقي الدين الفاسي: «وكتب الإمام العلامة المفنّ أبو الفضل محمد بن إبراهيم التلمساني الشهير بابن الإمام المالكي، نزيل القاهرة المحروسة في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة بالقاهرة على نسخة من هذا، ومن تحفة الكرام الأولى ما نصه....» (الفاسي، 1998، صفحة 64/2).

أمّا الشيخ ابن حجر فقد اجتمع كثيرًا بالشيخ محمد بن إبراهيم، و من جملة ذلك ما ذكره السخاوي، حيث قال إنّ شيخه ابن حجر كان مصمّمًا على عدم الولاية للقضاء أصلًا، واتّفق أنّه قدم عليه العلامة أبو الفضل ابن الإمام التلمساني، وكان الآخر ملتزمًا أن لا يلي القضاء أصلًا، فقصّ ابن حجر عليه منامًا رآه لنفسه، فعبّره له بأنّه دالٌّ على عدم ولايته القضاء، فقال ابن حجر: وليس في المنام ما يدلُّ على ذلك، غير أنّه أحبّ التّفاؤل لي بذلك لما يحبُّه لنفسه، فلم يلبث أن أوقع القضاء والقدر كلّ واحدٍ



منّا في الولاية، والأمرُ بيد الله تعالى، يفعل ما يشاء (السخاوي، 1999، صفحة 620/2)، وذكر السخاوي غير ذلك من أخبار الشيخين ابن حجر ومحمد بن إبراهيم (السخاوي، 1999، صفحة 383/1).

وممن أخذ عن الشيخ محمد بن إبراهيم أيضا وكان صغيرا عندئذ الشيخ الشّمّني، حيث أتى به والده إلى مجلس الشيخ محمد بن إبراهيم بمصر وعمره لم يتجاوز 12 سنة (تغري-بردي، بدون تاريخ، صفحة 101/2)، ولهذا نقل الشّمّني خبرا أخذه عن الشيخ محمد، ولصغر سنّه لم يدر أيعدهُ سماعًا أم إجازة، حيث قال: «حدثنا شيخنا العلامة أبو الفضل ابن الإمام التلمساني إجازة إن لم يكن سماعًا قال أخبرنا شيخنا القاضي سعيد العقباني قال: اجتمعت بمدينة مراكش بيهودي يشتغل بالعلوم فقال: ما دليلكم على عموم رسالة نبيكم؟ قال: قلت قوله: "بعثت للأحمر والأسود" فقال لي: هذا خبر آحاد لا يفيد إلا الظن والمطلوب في المسألة القطع فقلت له: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، فقال: هذا لا يكون حجة إلا على من يقول بصحة تقدم الحال على صاحبها المجرور، وأنا لا أقول بصحته» (الشّمّني، 2012، الصفحات 346/2-347).

وقد جالس المقرئ في مصر الشيخ محمد بن إبراهيم وسمع منه فوائد، وذكر بعض خصائصه، فقال إنّ له حسن سمت وفصاحة عبارة وجودة كلام، مع ميل إلى طريقة جميلة من تصوف وزهد وشرف نفس وقناعة وإعراض عن حب الشرف والرياسة، وقال إنّّه اجتمع به غير مرة ورأى منه ما يسرّ النَّفس ويهيجها (المقرئ، 2002، صفحة 87/3).

ولمّا كان المقرئ مهتمًا بجمع أخبار شيخه ابن خلدون، فقد أورد قصة سمعها من الشيخ محمد بن إبراهيم، وهي قصة ما حدث لابن خلدون من اعتقال من طرف سلطان الدولة المرينية أبي عنان المريني، وطلبه من الشيخ أبي القاسم داود السكوني تسليته في محنته (المقرئ، 2002، صفحة 87/3).

ولمّا وصلت نسخة ابن الخطيب لكتابه "الإحاطة في تاريخ غرناطة" إلى مصر، تلقّفها أيدي العلماء بالمطالعة والثناء، فكُتِبَ بهامش هذه النسخة كتابة لجماعة من



أهل المشرق والمغرب منهم الشيخ أبو الفضل محمد بن إبراهيم ابن الإمام التلمساني، وابن دقماق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر، وأبو الحسن علي ابن الخطيب، والخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق، وغيرهم (المقري، 1997، صفحة 106/7).

- خاتمة:

كانت هذه الورقة البحثية قراءة عامة للتاريخ الثقافي بتلمسان في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، حيث طرقت بعض الجوانب من الحياة العقلية في تلك الحقبة، مستحضرة في ذلك ما قدمه سلاطين الدولة الزيانية ومن جاء بعدهم من المرينيين، ثم درست هذه المقالة جانبا من حياة الشيخ أبي الفضل محمد بن إبراهيم ابن الإمام، بالاعتماد على كتب التراجم والتاريخ.

وقد ساعدت المزاوجة بين المصادر المغربية والمصادر المشرقية ومحاولة التوفيق بينها من حيث المقارنة والتعقب والتحليل في تحقيق أهداف هذه الورقة البحثية وهي:

- كتابة ترجمة وافية نوعاً ما لهذا العلم التلمساني، فيها ذكرٌ لجانب من حياته في تلمسان مع إحاطة لتاريخ عائلته، عائلة ابن الإمام، ثم ذكرٌ لشيخه وتلامذته.
- اقتفاءً لآثار رحلة الشيخ أبي الفضل إلى المشرق في كتب التراجم وغيرها، كون هذه الرحلة لم تدوّن من طرف صاحبها، لذا فمحاولة جمع وتأليف أطراف تلك الرحلة العلمية من أخبار وحوادث كان لها دور في إبراز قيمة الشيخ أبي الفضل من الناحية العلمية من خلال التطرّق إلى العلماء الذين التقى بهم كابن حجر وابن حجي، وعلاء الدين بن سلام وتقي الدين المقرئ والمقريزي وتقي الدين الفاسي.
- ذكرٌ لجانب من حياة الشيخ أبي الفضل العلمية ومجالسه الأدبية، وتعليقاته على بعض التفاسير، وقد أوردت هذه الورقة بعضاً منها على شكل نقولات لتوضيح هذا الجانب من حياته العلمية.

ولا شك أنّ هذه المقالة لم تحط بكلّ حياة الشيخ أبي الفضل بن الإمام نظراً لقلة المصادر من جهة، ولعدم ظهور أعمال الشيخ أو معرفة مظاهره في المكتبات والخزائن، ولذا وجب وضع بعض التوصيات للباحثين بالنسبة لهذا الأمر منها:



- ضرورة البحث في الخزائن والمكتبات عن تلك الآثار وعدم الاتكال على فهارس المكتبات التي قد لا تساعد في الوصول إلى المطلوب.
- دراسة آثار الشيخ أبي الفضل من التفاسير أو الآراء الفقهية المتاحة، ومحاولة وضع قراءات تحليلية لها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الأحرش سعيد. (1996). بردة البوصيري في المغرب والأندلس خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، المغرب: نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.
2. البلوي أحمد. (1983). ثبت أبي جعفر أحمد البلوي الوادي آثي، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
3. ابن تغري بردي يوسف. (بدون تاريخ). المنهل الصافي والمستوفي قبل الوافي، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
4. ابن حجي أحمد. (2003). تاريخ ابن حجي، لبنان: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.
5. ابن الخطيب لسان الدين. (1424). الإحاطة في أخبار غرناطة، لبنان: دار الكتب العلمية.
6. ابن غازي محمد. (1984). فهرس ابن غازي، تونس: دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع.
7. ابن فرحون إبراهيم. (بدون تاريخ). الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ط1، القاهرة: دار التراث للطبع والنشر.
8. ابن القاضي الفاسي. (1971). درة الحجال في أسماء الرجال، ط1، القاهرة، دار التراث.
9. ابن مريم محمد. (1908). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر: مطبعة الثعالبية.
10. التنبكي أحمد بابا. (بدون تاريخ). نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط2، ليبيا: دار الكاتب.
11. التنسي محمد بن عبد الله. (1980). نظم الدر والعقيان، لبنان: دار نشر فرانس شتاير.
12. حساين عبد الكريم. (2015). «الحركة العلمية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين»، مجلة آفاق فكرية، المجلد 3، العدد 1، 2015، ص 118-130.
13. السخاوي شمس الدين. (1999). الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، لبنان: دار ابن حزم للطباعة والنشر، لبنان.



14. السخاوي شمس الدين. (بدون تاريخ). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لبنان: منشورات دار مكتبة الحياة.
15. الشّمّي تقي الدين. (2012). المنصف من الكلام على مغني ابن هشام، لبنان: دار الكتب العلمية.
16. الفاسي تقي الدين. (1998). العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ط1، لبنان: دار الكتب العلمية.
17. فيلاي عبد الكريم. (2002). تلمسان في العهد الزياني، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.
18. القلصادي أبو الحسن. (1978). رحلة القلصادي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع.
19. محفوظ محمد. (1994). تراجم المؤلفين التونسيين، لبنان: دار الغرب الإسلامي، لبنان.
20. المقرّي أحمد. (1997). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لبنان: دار صادر.
21. المقرّي أحمد. (1997). فتح المتعال في مدح النعال، ط1، مصر: دار القاضي عياض للتراث.
22. المقرّي تقي الدين. (2002). درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ط1، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
23. هادي جلول. (2018). «الحياة العلمية في حاضرة تلمسان وعناية السلطة الزيانية بها (ق 9-8هـ/14-15م)»، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 19، جانفي 2018، ص 80-86.
24. الونشريسي أبو العباس. (1981). المعيار المعرب والجامع المغرب، المغرب: نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.